(٩)

دعوتان منافستان

ليست « الجاهلية » محدودة موقوتة بعصر انقضى، فذلك عرف محدود ، بل النزاع والصراع موصولان بين الجاهلية والاسلام . . . ولقد انتصر الاسلام انتصاره الرائع يوم استجاب للاسلام أهلوه ، واعتز بالله وبه متبعوه، وحرص على فرائضه وحدوده معتنقوه، ثم عاد المسلمون الأواخر القهقرى ، فرزئوا فى جهادهم وفى فضائلهم حتى عادت فيهم الجاهلية جذعة حمقاء . . . وليتهم كانوا فيها اعلاما او رءوسا - وفى الشر خيار كما يقولون - بل هم فوق هذا عبيد اوذناب ، ولن يعزوا فى الكون ويتخلصوا من الهوان إلا يوم يكفرون بكل طاغوت ويجحدون كل شيطان ، ويؤمنون بالله الواحد القهار) ! . . .

الشرباصى

دعوتان منافستان

لم تزل فى الدنيا منذ وجدت دعوتان منافستان متصارعتان دعوة تدعو إلى إتباع النفس وتحكيمها وإلى حرية الانسان المطلقة التى لا تقف عند حد (الا إذا اضطرت إلى ذلك) وان كان فى غضون هذه الحرية وأثنائها مآت وآلاف من انواع الرق والعبودية ، ودعوة تقول ان الانسان عبدالله مكلف ومسئول أمامه وتدعو الى إتباع الوحى من الله وشرائع الأنبياء .

الدعوة الأولى هى « الجاهلية » فى مصطلح الاسلام الواسع والدعوة الثانية هى دعوة الاسلام نفسه وانقسمت هاتان الدعوتان أمم العالم وأجياله ، ولم تزل تتداول قيادتهما وتمثيلهما من حين الى حين ، وليس تاريخ الأديان والعقل والأخلاق إلا حكاية هذا الصراع المستمر والنزاع الدائم وذلك أكبر صراع وأوسعه شهده العالم فى عمره الطويل .

ومنذ ثلاثة عشر قرنا ونصف اختار الله لقيادة الدعوة الثانية (الاسلام) أتباع محمد ﷺ وكتب لهم الامامة فى ذلك الى يوم القيامة .

كذلك لم تزل تمثل الدعوة الجاهلية وترأسها أمم وحضارات جاهلية فى عصورها ودوائرها ، حتى قضى ربك ان تتولى زعامتها وتحمل رايتها أمم أوربا النصرانية قبل نحو قرنين ، وإنما رشحها لهذا المنصب وجعلها حاملة لرسالة الجاهلية فى العالم مجاهدة فى سبيلها سوء تمثيل النصرانية المحرفة للدين المطلق ورهبانيتها وعجزها عن حل القضايا الانسانية والمعضلات البشرية ، ثم سوء تمثيل علمائها وكهنتها وقسوسها للنصرانية نفسها وبما حالوا بين أممهم وبين الرقى والتقدم وبما أذاقوا العلماء الاحرار والمكتشفين من أنواع العذاب التى تقشعر لها الجلود وتتفطر منها مرارة الانسان مما حفظه لنا تواريخ الصراع بين الدين والمدنية

والدين والعقل والدين والعلم فى أوربا (١) أضف الى ذلك كله ثورة الثائرين على النظام القديم وطيشهم فكان عاقبة ذلك أن أصبحت أمم أوربا وهى المتحفزة للنهوض الطامحة إلى الرقى تبغض الدين مطلقا وتتحرر من كل نظام قديم وتعادى كل دعوة دينية خلقية وترى فيها حجر عثرة فى سبيلها وفى أصحابها عدوا لدودا للرقى الانسانى وعلى كل فتحولت أمم أوربا جاهلية مادية محضة ، وكان هذا التحول من اتعس الحوادث التى وقعت فى التاريخ والذى قد جر على الانسانية شقاءاً طويلا وويلا عظيما ، ولكنه كان واقعا لا محالة لاسباب طبيعية عقليه .

وتقدمت أمم أوربا الفتية المتحمسة لغزو العالم وفتحه وقد أخذت له أهبته وأعدت له عدته فكان بحكم الطبيعة أن تصادم بمثل الدعوة الثانية المضادة لها وهم المستولون على أجمل رقع العالم المتمدن المعمور وعلى أهم بقاع الارض سياسيا وجغرافيا وأخصبها واثراها اقتصاديا وكان بديهيا أن يقع أول صراع واكبره بين هاتين الفئتين فكان ذلك !

كان ذلك والمسلمون منذ أمد بعيد قد فقدوا روح الرسالة التى كانوا يحملونها والتى قد أصبحوا بقوتها سيلا جارفا جبارا لا يقاومه الحشائش ولا تقف فى وجهه الصخور وقوة المسلمين وروحهم دائما من الرسالة والدعوة . فاضحوا لا يحملون رسالة الاسلام الى العالم ولا يدعون دعوة دينية تنفخ فيهم الحماسة والفتوة ويأتون لها بخوارق ومعجزات ، وتفتح لهم هذه الرسالة قلوبا وعقولا وتسخر لهم ممالك ودولا ، وأصبحوا جيلا من الناس كسائر الاجيال يرى مايحدث فى العالم من خير وشر ومايسود فيه من حق وباطل هادئا مطمئنا كمتفرج أو كعاجز ليس له من الامر شيء .

وفقدوا الايمان والحماسة الدينية ففقدوا القلوب التى كانوا يلقون بها عدوهم وسلاحهم الذى كانوا يقارعون به فيهزمون أضعافهم فى العدد والعدد واصبحوا

---

(١) ويكفي للقارىء ان يجيل نظرة فى كتاب (الصراع بين الدين والحكمة) لدرابر الاميركى ، المطبوع قديما حتى يعلم مبلغ قسوة هؤلاء الكهنة وهمجيتهم ، ويفهم سر الثورة على الدين فى اوربا .

كثير الناس لايمتازون بمزيد قوة ولا بزائد يقين يألمون كمايألمون ولا يرجون من الله ما كانوا يرجون .

وفقدوا الأخلاق والفضائل التى كانت لهم قوة روحية وسلاحا ماضيا فى معترك الحياة دانت بها لهم الجبابرة ولانت بها صخور القلوب واستبدلوا بها عيوبا وادواء خلقية واجتماعية اخذوها من الامم الجاهلية المنحطة التى عاشروها وسرت فيهم ايام ترفهم وانحطاطهم الخلقى والاجتماعى ، فكانت كدابة الارض تاكل منشئاتهم وتنخر الدعائم التى قام عليها بناؤهم .

ونضب معين علومهم وجمدت قرائحهم وعقولهم وحرموا الاجتهاد والتفكير وقوة الاكتشاف والابداع ، ومنى علماؤهم بجمود عقلى وركود علمى لايزيدون فى ثروة العلم ولا يفتحون للعقل أبوابا ومنافذ جديدة ولاينظرون فى علوم الطبيعة والكون بينما كانت أوربا تسخر لمصالحها قوى الطبيعة ويكشف علماؤها عن أسرار الكون ويتخذ عاملوها نفقا فى الارض وسلما فى السماء .

أما الامراء والملوك المسلمون فقد تركوا الجهاد فى سبيل الله منذ قرون واشتغلوا عنه بحروب بغضاء ومنافسة ، وشهوات ومطامع حتى دهم الاسلام الزحف الصليبى فلم يقم له إلا صلاح الدين الايوبى وبعض الافراد المتصلين به . ومرت كارثة الاندلس وكأن لم يكن شيء وزحف التتار والمغول ـ وذلك الجراد المنتشر ـ فنهكو قوى المسلمين ، وزادوهم وهنا على وهن .

هذه هى العوامل التى ساعدت الاوربيين فى فتحهم وانتصرت بهم الجاهلية على الاسلام فكان اكبر انتصار نالته الجاهلية عل الاسلام منذ زمن طويل ولو تكلمت لقالت اليوم انتصفت من عدوى وأخذت ثار الامم التى فتحها والدول التى محاها والحضارات التى طمسها ومن اليوم أزدهر فى بلاده وأخصب فى نجاده ووهاده وأجرى بحراى لا يسد تيارى شيء .

لو قالت لصدقت لأن المسلمين على علاتهم كانوا امناء لرسالة الانبياء حملة لمصابيح شرائعهم حرزا للدين فى الدنيا وردءا للأخلاق والفضيلة على كل حال وكانوا اعظم سد فى وجه الجاهلية ويتحولون اكبر خطر عليها فى كل وقت .

كانت رزية المسلمين فى هذه المزعة عظيمة وخطبهم فادحا جدا فقد خسروا بلادهم التى كانت تدر لبنا وعسلا وخسروا جميع دولهم تقريبا ، ومنوا بنوعين من العبودية السياسية والعقلية ، وحيث أفلتوا من العبودية المـــادية لم يفلتوا من العبودية العلمية والخلقية .

ورزؤا فى أخلاقهم التى أورثتهم اياها تعاليم الأنبياء والمحاسن التى حافظوا عليها طوال هذه القرون من صدق وامانة وشجاعة ووفاء وعفة وطهارة وكرم وتواضع وتقوى الله فى السر والعلانية ومراقبة حدوده الى غير ذلك مما يمتازبه أتباع الشرائع السماوية من أهل الجاهلية وتسلطت عليهم بتأثير الأمم الغربية العيوب الخلقية والمخازى البشرية التى ورثتها أوربا من روما واليونان الوثنيتين ومن قرونها المظلمة ومن جاهليتها كالنفاق والرياء والغدر بالعهود اذا دعت إلى ذلك مصلحة والجشع المادى والأيمان بالقوه وحدها والاحترام للمال والثروة وحدها وتقديم المصالح والمنافع على الأخلاق والفضائل .

وما كانت رزية الإنسانية فى هذا الأنتقال بهينة فتزلزلت مبانى الأخـــلاق والفضيلة فى كل صقع وقطر ، وحدثت ثورة على كل نظام قديم وان كان عادلا وحسنا ، وعمت الفوضى فى البيوتات والأسر وتغير الولد للوالد وعقه وفركت المرأة بعلها وثارت عليه ، وانحلت عقد الأرحام ولم يعد الصغير يوقر الكبير ولم يعد الكبير يرحم الصغير ، وتعوضت القلوب من الألفة والمحبة الجفاء والبغضاء وكثر التنافس فى الحيوة الدنيا وفى الرقى المادى ، وفى أسباب الجاه والثروة وتولدت من ذلك شرور وآفات كدرت صفو الحياة وأماتت القلب والروح إلى غير ذلك من الظواهر التى تشكو منها كل ديانة وكل حضارة شرقية بها وغربها ومما يشترك فيه المسلمون وغيرهم من الشرقيين .

ثم ان هذه الأمم الجاهلية قد أصبحت تتحكم فى أموال الناس ونفوسهم وأرزاقهم وأصبحت تملك السلم والحرب وأصبح العالم فى حضانتها كولد يتم أو شاب سفيه لا يملك من أمره شيئا فتارة تسوقه إلى ساحة القتال وطورا تملى عليه الصلح وليس له فى صلح أو حرب يد مرفوعة أو كلمة مسموعة .

ماذا عسى أن يكون أثر هذه الهزيمة والرزية العامة فى نفوس المسلمين وفى نفوس بنى آدم عامة ؟ أما الناس عامة فلكل انسان أن يجيب عنه وسيجيبون عنه أما المسلمون - وهم أولى بأن يوجه هذا السؤال اليهم لأن منهم انتقل هذا الملك الواسع والأمر والنهى إلى الأوربيين ولأن دينهم يقتضى أن يكون ظاهرا على كل دين وأن يكونوا هم الأسوة وحدهم للعالم - فسيقول كل مسلم لم يمت قلبه ان من الطبيعى أن تنطوى صدور المسلمين على احن وأحقاد للجاهلية وأن ينظروا إلى كل من يمثلها فى كل مكان كعدو غاضب وغريم منافس وان طبيعة رسالتهم ودعوتهم فى العالم تقتضى بداهة أن تعزل الأمم الجاهلية من قيادة العالم والتأثير فى عقول الناس وتوجيه أفكارهم وأن تمنع من تمثيل الجاهلية فى العالم وأن ينزع منها سلطانها حتى لا تكون فى دعوتها فتنة لمفتون ، وحتى لا تنافس الدعوة الى الله دعوة ولا ينازع فى الدنيا عاملا يتجاذبان النفوس والعقول إلى جهتين مختلفين (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

ويعلم كل ذى بصيرة بل كل ذى بصر أن مجرد سيادة هذه الأمم واستعلائها السياسى والمادى دعاية عظيمة لدينها ، وحضارتها ، ومبادئها ، ومناهج فكرها ، وأخلاقها لا يقاومها منطق ولا أستدلال ولا حجة ولا برهان ، ولا فلسفة ولا أخلاق ، ولا تنجع ضدها دعوة الأديان وانها قد أصبحت بزخارفها مغناطيسا للقلوب تنجذب اليها كما ينجذب الحديد .

وهذه هى الحقيقة التى ذكرها موسى عليه الصلاة والسلام فيما حكى القرآن عنه فى دعائه الذى دعا به فى مصر على عهد فرعون وهى حقيقة فى كل عصر ومصر

« ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » .

فاذا كان المنتظر من المسلمين - وهم حاملو رسالة الإسلام ؟ كان المنتظر منهم أن يروا فى أوربا وأمريكا زعيما للجاهلية . الذى تولى كبرها وحمل رايتها فى الآفاق ، وكان الواجب أن تكون هذه المسئلة هى أم المسائل وكبرها فى نظرهم وأن تشغل ذهنهم وتستغرق سعيهم ، وكان الواجب أن يعدوا أنفسهم فى كل ناحية من نواحى

العالم ممثلين لدعوة الاسلام ضد هذا الدعوة الجاهلية ، وأن لا يتخذوا موقفا مهما كان أقتضاء المصالح الوطنية والسياسية والمالية لا يتفق وممثلى الاسلام وحاملى رسالته وأن لا ياتوا بشىء تتغذى به الحركة الجاهلية فى العالم ، وأن لا يظهر منهم شىء ينم عن ركونهم إلى هذا النظام الجاهلى الذى بسطته هذه الأمم فى العالم وتريد أن تبسطه ويظهر به تعاونهم على هذا الاثم والعدوان الذى لا عدوان أكبر منه .

ولكن مما يبعث الاسف العميق والعجب الشديد فى النفوس ، عجبا يميت القلب ويشغل الفهم ويكثر الاحزان ، كما قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه فى خطبة له - ان المسلمين - عامتهم لم يدركوا هذه الحقيقة مع وضوحها وانجلائها ، وذهلوا عن موقفهم الصحيح فى العالم ، ونسوا وجهلوا أنهم والأمم الاوربيه الجاهلية دعاة لنظامين للحياة متضادين ، ولحضارتين متناقضتين وأنهم واياها ككفتى ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى .

وأصبح المسلمون أخيرا لجهلهم للدين ومايقتضى من حب وبغض وبتأثير الدعاية يرون إلى الجاهلية الاوربية كالحليف الوحيد للاسلام وأنهم يقرعون بين أمها ودولها أيها أقرب اليهم وأنفع لمصالحهم وأغراضهم السياسية والمالية ويجهلون أنها مهما أختلفت فى نظمها السياسية وفى ادارتها الداخلية أو سياستها الخارجية ومهما تعادت وتباغضت فيما بينها فانها أخوات شقيقات من اب واحد وأم واحدة وانها لاتختلف فى المبادى الأولية وفى فلسفتها التى يسميها الاسلام الجاهلية ، وغاب عن عقلاء المسلمين والمتعلمين منهم بل وقادتهم وزعمائهم فضلا عن العامة أنه مادامت هذه الأمم تتمتع بالغلبة السياسية وما دامت لها سيطرة على العالم فهى المثل الكامل والقدوة العامل فى الاخلاق والسيرة والعلم والمدنية والفضائل والرذائل وما دامت كلمتها عليا فلا تزدهر للدين دعوة ولا تعلو له كلمة ولا يسود فى العالم الأخلاق الفاضلة ولا تكون لها قيمة - ففى مصلحة الاسلام وفى مصلحة الانسانية أن تعزل بأسرها ، عن قيادة العالم ولما كان المسلمون هم المسئولون وحدهم عن صلاح العالم وفساده ووظيفتهم الحسبة على الناس وهم القوامون بالقسط شهداء لله وهم المراقبون لسير العالم فلهم أن يجتهدوا فى

ذلك أكثر من كل شعب وأمة ، بل يجب عليهم ان يكونوا طليعة وأن يكونوا اماماً فى الحركة ضد الجاهلية وأممها ، بل يجب أن تبدأ منهم الدعوة واليهم تعود .

ولكن أجل نظرك فى العالم الأسلامى كله وانظر فى شعوبه وامه ودوله — ان كانت فيه دول تملك أمرها — وفى جميع طبقات المسلمين هل ترى شيئاتستدل به على أن هذه الامة المنبثة فى أرجاء الارض صاحبة رسالة فى العالم وصاحبة دين وعقيدة وأنها تنكر مما وقع وواقع شيئا وتحمل فى صدرها حفيظة ضد الجاهلية وأهلهاوتريد أن ترفع للاسلام راية وتجتهد لأعلاء كلمة الله

كلا ! بل ترى أمة هادئة مطمئنة راضية بكل مايقع فى العالم اليوم ؛ سليمة الصدر ، قريرة العين ، ناعمة البال تتعاون مع الجاهلية وأممها وتتحالف ، وتقدم لها كل معونة تقدر عليها لمثل هذا يذوب القلب من كمد . ان كان فى القلب إسلام وإيمان .

أجل ان كان فى القلب إسلام وايمان لما ارتضى مسلم بهذا الخزى ولكن كل ذلك يرجع إلى كون الرجل مسلما ، يحب لله ويبغض لله ، ويوالى فى الله ويعادى فى الله ولذلك ذكره القرآن شرطا فى قوله .

(يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة ، وانا اعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداءاً ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ..

ثم ضرب لذلك مثلا بابراهيم وأصحابه .

قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنا برءؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابداً حتى تؤمنوا بالله وحده (الممتحنه)

ليلاحظ القارىء العربى النكتة فى قول ابراهيم وأصحابه « كفرنا بكم »

وبلاغة الكلمة وسمتها ، فلم يقولوا كفرنا بدينكم كأنهم قد اصبحوا صورة وتمثالا للكفر والجاهلية جامعين لمعانيها واشكالها ومظاهرها ، ولأن حياتهم كلها وما يتصل بها من علوم وفلسفة ، وحضارة وثقافة قد سرى فيها روح الكفر والجهل وذلك ينطبق على كل امة جاهليه حرمت من هدى الانبياء وعلومهم وبنت حياتها وعلومها ومدنيتها على دلالة الحواس أو على القياس او التجارب ، فعمل الانكار لجميع هذا وكأنهم أعلنوا بهذا اللفظ ، أنهم ثائرون على هذا النظام الجاهلي برمته وحذافيره جاحدون به كافرون بأصحابه لايؤمنون لهم بفضل ولا يخضعون لهم بشيء !

ثم لينظر القارىء وليعتبر كيف ان المسلمين وهم أتباع دين واصحاب يقين قد آمنوا بزعماء الجاهلية وأئمة الكفر ولو لم يؤمنوا بدينهم ولكنهم آمنو بهم بأوسع معانى الكلمة وقد اشترط الله للايمان به الكفر بالطاغوت وقدم عليه وقال فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى .)

أما إذ أصبح المسلمون لايعنيهم أمر الدين والأخلاق ولا يهمهم مصير الانسانية ومستقبل العالم ولا تهمهم إلا المصالح السياسية والفوائد المادية الحاضرة التى تعود على بلادهم أو شعبهم وبالاصح على اشخاصهم فجبلهم على اغاربهم وأمرهم بيدهم ولكن ليعلموا أخيرا أن سفينة الجاهليه التى اختاروها لسفرهم قد احيط بها وأن الواحها قد تآكلت ونخرت منذ زمن وان ربابينها قد أختلفوا فى ما بينهم فى تسييرها وقيادتها وليعلموا أن هذه السفينة اذا غربت فأنها سغرق بجميع ركابها وكل من وصلوا اسبابهم بأسبابها ولا عاصم من أمرالله الامن رحم وقد قال

(ولا تركنوآ الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من اولياء ثم لاتنصرون)